طالوت .. درسٌ في الزَّعامة

للشيخ

رفـــاعي ســـــرور

رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

تجربة قرآنية تاريخية في قضية الزعامة هي قصة طالوت التي عقب القرآن عليها بقوله سبحانه {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [البقرة: ٢٥٢] لنفهمها درسا منهجيا باقيا لأتباع المرسلين

– والبداية هي تفسير حقيقة الموت والحياة

والاستعداد للموت أساس الفهم الصحيح والحركة الصحيحة ولذلك تبدأ الآيات بمعالجة هذا الإحساس بحقيقة أن الحرص على الحياة لايبيقيها والخوف من الموت لايمنعه وهذه هي الحقيقة في المعالجة :{الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْت} {فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا}

أماتهم الله وهم حريصون على الحياة وبعد أن ماتوا وفقدوها.. أحياهم الله.

وبعد فهم قضية الموت والحياة..يكون القتال في سبيل الله أمر سهل {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

وعندما يكون الاستعداد للموت يكون الإستعداد للبذل.. سنة نفسية ثابتة ومعيار سلوكي صحيح {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون}

والله يحي ويميت ويقبض ويبسط (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران:٢٧)

بهذه القاعدة نعيش الواقع ونخوض التجربة

وتبدأ الآيات بالتحديد الزمني للتجربة..

ملأ من بني إسرائيل {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}

والتحديد الزمني (من بعد موسى) كان ضروريا لأن آية الملك ستكون بقية مما ترك آل موسى وآل هارون)

ولكن الأمر يتطلب الاطمئنان إلى مصداقية هذا الطلب {قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا }

ولكن أصحاب الطلب يثبتون أهميته {قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}

إجابة مقنعة.. فعندما يكون الإخراج من الديار والأبناء لابد أن يكون القتال.

ومع ذلك فقد يكون الإخراج من الديار والأبناء ولايرون وجوب القتال بل يحاربون أهله.

حالة تجاوز فيها هؤلاء الناس حد الطبع الانساني بالغيرة على العرض والأهل..فمسخوا وغابوا عن الوعي والطبع.

فلماكتب عليهم القتال بعد مطالبتهم به لم يواصلوا الطريق الواجب {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا }

وكلمة ''بعث'' تدل على أن نشأة الامارة في مثل هذا الواقع قضية قدرية خالصة، لأن االمعايير اللازمة للإمارة غير قائمة في واقع الفراغ، وهذا لايعني الا اللجوء إلى الله والاستعانة به في أن يبعث من تجتمع حوله القلوب. بدلا من الهروب وإسقاط واجب الجماعة والإتجاه نحو العزلة.

كماأن كلمة ''بعث'' تدل على أن الزعامة في مثل هذه الظروف إرتفاع بمستوى شخص من قدرها الله له فوق إنحطاط الواقع والخروج به عن سياق الضعف والتخبط.

وبمجرد بعث طالوت بدأت مشكلة الصراع على الزعامة !

وقد يتبادر إلى الذهن أنه ما كان لهذه المشكلة أن تظهر في مثل هذه الظروف، ولكن هذه المشكلة تفرض نفسها على كل الظروف، وتلك هي خطورتها، مما يقتضي

التعامل معها باعتبار تلك الخطورة.

{قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ}

جميعهم قالوا... كل واحد منهم قال...كل واحد منهم كان يتصور أنه أحق بالزعامة...

وفهم هذه المشكلة هو الذي يحقق التعامل الصحيح معها، وأول قواعد هذا التعامل هو فرض الزعامة كأمر واقع {قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ}

ثم تحقيق القناعة النفسية بالزعامة بعد فرضها.

وترتيب الآية في تفسير المشكلة هو نفسه ترتيب مواجهتها.. الفرض ثم القناعة

وإثبات إمكانية الزعامة المفروضة هي أول أسباب تحقيق القناعة {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}

وهما عنصري الزعامة

فالناس يحتاجون إلى العلم الصحيح ويحتاجون إلى صاحبه وتكون له الولاية عليهم، وكذلك يحتاج الناس إلى العمل ويحتاجون إلى صاحب القدرة عليه.

ولايؤثر في الأتباع ويضمن ولاءهم إلا العطاء العلمي والقدرة العملية، العطاء العلمي الذي يجده الأتباع في زعيمهم فيتحقق لهم الإيمان بأنهم على الحق في كل موقف وفي كل خطوة، والقدرة العملية في تحريكهم إلى العمل بمقتضي هذا الحق.

وبتحقيق الولاء للزعامة السياسية بخصائصها وقدراتها الذاتية والنفسية والسلوكية في شخص الزعيم .. ينقطع طمع كل واحد فيها لتبدأ مرحلة تقييم هذه الزعامة التي فرضت عليهم.

{وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}

والإيمان بأن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء هو الأساس النفسي التي تتحقق به المعالجة ، وهذا الترتيب له تفسيره.

فالأمر الاول هو فرض الزعامة الذي سينهي الطمع فيها، لتنتقل النفس بعد اليأس منها إلى تقييم من إستحقها دونهم.

فيأتي الأمر الثاني وهي بالإمكانيات واقع ثابت في الزعيم المختار يصعب على الإنسان ادعائه لنفسه

ليأتي الاختصاص الذي لاحيلة لأحد فيه وهو المشيئة الإلهية

واعتبار الكفاءة في اختيار الزعامة يعني أن القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي هو المعيار الاساسي للاختيار، وأن المقارنة بين أصحاب الفكر النظري وأصحاب القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي الصحيح عمليا يجب أن تكون لصالح أصحاب هذه القدرة العملية.

وكل ماسبق قد لايكفي النفس للتسليم بالزعامة .

فيدخل إلى النفس أن كل هذه الإختصاصات غير كافية إذا كان الأمر متعلقا بمصير الأمة.

فترغب النفس بعد ذلك إلى الإطمئنان إلى صواب الزعامة وإمكانية تحقيق النصر بها

فتنتقل الآيات لمتابعة المشكلة

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين}

التابوت حقيقة محسوسة ملموسة للاطمئنان، والتابوت نفسه جعل الله فيه السكينة.

وكان التابوت كافيا.. ولكن طالوت أتي بالتابوت {وبقية مما ترك آل موسي وآل هارون}

ليكون الارتباط القدري الشخصي بين نبي الأمة ونصرها هو ما تعنيه البقية

ويبين لنا رسول الله صلي الله عليه وسلم حقيقة هذا الارتباط باعتبار أن امتداد صلة الأمة بالنبي هي أساس الفتح فيقول: «يأتي على الناس زمان يغزون، فيقال: فيكم من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون: نعم، فيفتح عليهم، ثم يغزون فيقال لهم:

هل فيكم من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم» البخاري في صحيحه.

وفي رواية أبي داود: عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: «يأتي على الناس زمان – فيغزو فئام من الناس. فيقال لهم: هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: نعم فيفتح لهم» ولعلنا نلاحظ عبارة هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تدل على أن رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أساسًا للفتح، ومن هنا قدم البخاري من خلال أبواب كتاب الجهاد صورة وصفية لكل تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم وكأننا نراه ليقترب المسلمون من رؤية الرسول ليتحقق في المسلمين أمرًا يعينهم على فتح الله لهم.

وإن كانت البقية التي تركها آل موسى وآل هارون هي التابوت فيه السكينة من الله..

فإن ما تركه رسول الله صلي الله عليه وسلم هو كتاب الله وسنته"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي"

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ}

لم يكن هناك فارقا زمنيا بين إختيار طالوت زعيما وبين فصله بالجنود

ولذلك لم تذكر الآية إعلان إتفاق الاتباع على زعامة طالوت بل جاء مباشرة الفصل بالجنود، الخروج بهم إلى القتال، فإن أخطر ما يواجه الزعامة أن يعيش الاتباع في فراغ من العمل ولو لوقت ضئيل..

وأخطر مشاكل الدعوة هي جمع الأتباع دون وجود الخطط المتفق عليها للعمل.

ولابد من تطور العمل لأن الأتباع لا يقنعون إلا بالعمل ولا يقنعون بعد العمل إلا بعمل أقوي منه.

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي}

فالابتلاء بالنهر جاء بعد الفصل بالجنود

وهنا يتبين الفهم الصحيح لمرحلة التربية... أن تكون من خلال الواقع وفي إطار المواجهة والواقع القتالي وفي هذا الواقع يكون البلاء.

وتأتي حقيقة التوازن بين الصبر على البلاء.. والثبات على الحق والطاعة...من ناحية وإعتبار الطبيعة البشرية.. من ناحية أخري.

فكان مقتضي الصبر على الطاعة هو {فمن شرب منه فليس مني}

وكان إعتبار الطبيعة هو {إِلَّا مَنِ اغْتَرَف غُرْفَةً بِيَدِهِ} فيدخل في تحقيق التوازن في التربية العدل بين الأتباع .

لان الإحتياج إلى الماء سيكون بقدر حجم الجسم ومعيار حجم الجسم هو حجم اليد ولذلك كان الأمر بالشرب بغرفة اليد

وهو ما جاء في نص الأمر {إِلَّا مَنِ اغْتَرَف غُرْفَةً بِيَدِهِ}

ولما كان البلاء هنا هو إختبار الاستعداد للموت، كانت طبيعة البلاء من جنس طبيعة الهدف منه.

فكان الامتناع عن شرب الماء وهو سبب الحياة... إختبار في القدرة على التضحية بهذه الحياة.

{فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}

وفي ذلك يقول سيد قطب:

«شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على

الطريق»(١).

{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}

وهذه الآية تناقش أخطر قضايا فقه الدعوة، فالذين آمنوا هنا لاتعني كفر من عصى وشرب لكنها تعني إيمان من أطاع.

وهذا هو حد الارتباط بين مصطلح الإيمان وعلاقته بالواقع العملي للدعوة والسمع والطاعة فيها.. أن تكون الطاعة إيمانا دون التكفير بالمعصية إلا أن تكون المعصية نفسها كفراً

ورغم الطاعة قد يكون الضعف، فالطاعة والإيمان يكون معهما معالجة الطبيعة البشرية الضعيفة {قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}

والمتكلمون هنا هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر والإبتلاء به، الذين ثبت إستعدادهم للموت، لم يصطدموا بالحرص على الحياة، ولكنهم إصطدموا بواقع المواجهة الصعب، نحن مستعدون للموت ولكننا قلة.

وتجاوز هذه الظروف يتطلب مستوى أعلي من تجاوز الابتلاء بالنهر، وهنا يظهر أهل النصر عندما يرتفعون بإيمانهم فوق الظروف، مستوى اليقين بلقاء الله الذي تعرج به النفس فوق مستوي الواقع.

{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

لم يصل إلى مرحلة القدرة على القتال إلا من تجاوز مشكلة الزعامة...ثم بلاء النهر... ثم بلاء الصدام ولقاء العدو.

بالتجرد من حظ النفس وحب الإمارة وهو أشد حظوظ النفس

والتحكم في الرغبة النفسية الطبيعية في الحياة... وهو أشد رغبات النفس

والإقبال على الموت.. وهو أشد مكروه إلى النفس

(١)

ليتحقق اليقين في لقاء الله.

وبعد إنشاء الواقع العلمي بأبعاده الكاملة تنشأ معايير الاختيار الشرعية والعملية بصورة طبيعية، والمثال عليها اختيار داوود عليه السلام، وذلك أن داود كان فردا ضمن الذين كانوا مع طالوت، وكان له دور متقدم بين الصفوة مكنه من أن يقتل جالوت فتميز داود بصورة لم تجعل له قرينا فكان هو الملك بعد طالوت بصورة تلقائية: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ}.

وقتل داود لجالوت هو إختصار لمعى التجربة كله وهذا الإختصار..مثل منهجي لحقيقة الصراع كما أراده الله.

فقتل داود –الفتى الصغير– لجالوت ملك العماليق يدل على قدرة الله المطلقة

ولذلك يقول سيد قطب

وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا.. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم.. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه إبنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود:

{وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء}.

" ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين.. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها.. إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب {ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن

الله، وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة، وعلمه مما يشاء}..

هكذا.. {ربنا أفرغ علينا صبرا}.. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة. {وثبت أقدامنا} فهي في يده – سبحانه – يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد {وانصرنا على القوم الكافرين}.. فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: {فهزموهم بإذن الله}.. ويؤكد النص هذه الحقيقة: {بإذن الله}.. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه.. إن المؤمنين ستار القدرة ؛ يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد الله. اختاره الله " «في ظلال القرآن»

أما العبرة الكلية للقصة ففيها يقول سيد قطب

" العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجا بعد فوج في مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين."